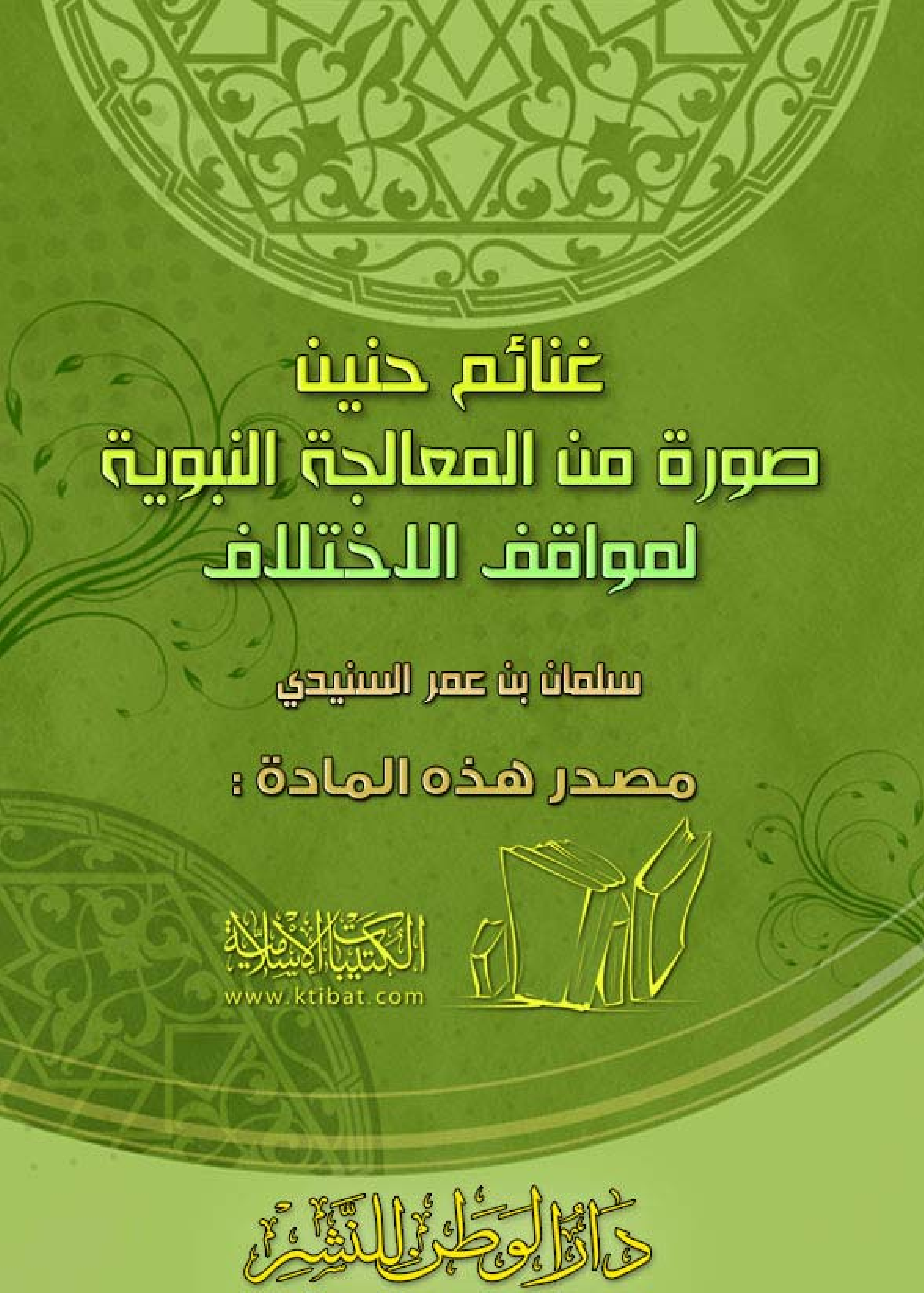

غنائم حنين
صورة من المعالجة النبوية
لمواقف الاختلاف
سلمان بن عمر السنيدي
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
دار الوطن للنشر

المقدمة

الحمد لله الذي جعل العاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على من جعله الله قدوة حسنة لمن كان يرجو الله والدار الآخرة وذكـــر الله كثيرًا.

أما بعد:

ما إن تُتم قراءة كلمات الرسول ﷺ تجاه الأنصار إلا وتقلِّـــب النظر في هذا المشهد النادر واللقاء المؤثر، حي من الأنصار شـــارك في التضحيات وبذل النفس والنفيس ثم يُحرم من غنائم جمَّة حازها المسلمون إثر غزوة حنين، فلمَّا احتار هذا الحيُّ في فهم سر هـــذا المنع اجتمع بهم الرسول ﷺ، فخرجوا وهم قانعون راضون بقسمة رسول الله ﷺ، بل وهم فرحون قد أخضلوا لحاهم بدموع الاعتذار والفرح.

لا يكاد المرء يمعن النظر في جانب إلا وينازعه آخر يشد السمع والقلب.

هل يقلب النظر في إخلاص النصح واستماع النقد أم في أدب الاعتذار وسمت العتاب، أم في سموِّ الخلق وحسن التعامل، أم في علو المقصد ورقة القلب.

ومما يزيد تعلُّق الإنسان بهذه المواقف الإيمانية نظره إلى اختلال موازين النقد وتلاشي سمت الخلاف وإلى ضعف خلق التعامل، وإلى غياب أدب العتاب وفن الاعتذار وكيف هيَّأ ذلك أرضًـــا خصـــبة

للتفرق والتدابر والتباغض والغل والحسد والتنابز.

ولك أن تتصور ما يحدث لحيٍّ بعد القرون المفضَّلة حُرم من بعض ما حرم منه الأنصار.

إن العناية الإيمانية في بناء الأفراد القائمة على أسس عقدية علمية إيمانية متينة كانت هي الحاجز القوي المانع للأنصار من الانحراف مع داعي الشكوك وما تهوى النفوس، إن هذا هو سر النجاح في معالجة النزاعات الداخلية والمواقف الحرجة، العاصفة التي تموج موج البحر.

إن ذلك شرط وقائيٌّ مهمٌّ يحتاج إلى زمن طويل وإعداد قوي ومنهج شرعي قويم.

وفي هذه الرسالة ذِكْرٌ للحادثة ولبعض ما يتعلَّق بها من جوانب تربوية.

هذا وإن الجهد البشري عرضة للقصور والنقص، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

سلمان بن عمر السنيدي

ص.ب ٢١٨٥ – الرياض ١١٥٦٣

٢٣/٤/١٤١٤هـ

الحادثة

عن أبي سعيد الخدري قال: لما أفاء الله على رسول الله ﷺ يوم حنين قسَّم الغنائم في المؤلَّفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا في نفوسهم؛ إذ لم يصيبهم ما أصاب الناس، حتى قال قائلهم: لقي – والله – رسول الله قومه ... حتى كثرت منهم القالة ... فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم. قال: «**في ما؟**» قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء. فقال رسول الله ﷺ: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي. فقال رسول الله ﷺ: «**اجمع لي قومك في هذه الحظيرة [1] فإذا اجتمعوا فأعلمني**». فخرج سعد فصرخ في قومه، فجمعهم في تلك الحظيرة؛ حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع أتاه فقال: يا رسول الله اجتمع لك هذا الحي الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم، فخرج رسول الله ﷺ، ولم يدع معهم غيرهم؛ فقام فيهم خطيبًا ... فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار ما حديث بلغني عنكم؟**» فسكتوا ... فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الأنصار ألم آتكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي، وأعداء فألف الله**

(١) الحظيرة: القبة من الأدم والجلد.

بين قلوبكم، وعالة فأغناكم بي؟ قالوا: بلى. قال رسول الله: **ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟** قالوا: وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك؟ المنّ لله ورسوله. قال: **والله لو شئتم لقلتم، فصَدَقْتُم وصُدِّقتم: جئنا طريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك وخائفًا فأمَّنَّاك ومخذولاً فنصرناك.** فقالوا: المن لله ورسوله. فقال: **أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا أسلموا؛ حديثو عهد بكفر؛ ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؛ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالدنيا إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبوا برسول الله تحوزونه إلى رحالكم، فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فوالذي نفسي بيده؛ لو أن الناس سلكوا شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، الأنصار شعار والناس دثار؛ إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»** ... فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسمًا وحظًا ... ثم انصرفوا وتفرقوا». [رواه أحمد (١) والبخاري (٢) ومسلم (٣) والترمذي (٤) والنسائي (٥)].

---

(١) ٣/١٧٢، ٢٧٥، ٣/١٥٧-١٥٨ وغيرها من طريق أنس.

(٢) ك/ المغازي – ب٥٦، ك/ المناقب بـ١٤.

(٣) مسلم ك/الزكاة بـ٤٦.

(٤) الترمذي ك/المناقب بـ٦٦.

(٥) السنن الكبرى للنسائي عن تحفة الأشراف ١/٢٣٦.

كيف تم تقسيم الغنائم؟

كان تقسيم الغنائم في الخامس من ذي القعدة بعد هزيمة هوازن في حنين في شهر شوال من السنة الثامنة، وقد حبسها رسول الله ﷺ في الجعرانة رجاء إسلامهم، وكانت الغنائم ست آلاف نفس من النساء والأطفال، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألفًا، والغنم أربعين ألف شاة، وأربع آلاف أوقية فضة.

وحين قسَّمها الرسول ﷺ أعطى أبا سفيان أربعين أوقية فضة ومائة من الإبل، فقال أبو سفيان: وابني معاوية ويزيد. فأعطاهما مثله، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة فأعطاه.

وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم أعطاه مائة أخرى، وأعطى عيينة بن حصن مائة، وأعطى مالك بن عوف مائة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة، وأعطى علقمة بن علاثة مائة، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة، وطلب المزيد فأكمله المائة [(١)]، وكذا أعطى رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين وأربعين أربعين ... وهكذا.

حتى شاع في الناس أن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة

---

(١) انظر: صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد ودلائل النبوة للبيهقي عن رافع بن خديج.

فانتزعت رداءه فقال: «**أيها الناس ... ردوا علي ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا**». [رواه أحمد والبخاري والبيهقي والحاكم].



ماذا وجد الأنصار في نفوسهم؟

جاء في روايات متعددة وصف ذلك؛ فمنها: (... فقالت الأنصار: إذا كانت شديدة فنحن نُدعى وتعطي الغنيمة غيرنا ...). ومنها: (فكأنهم وجدوا في نفوسهم إذ لم يصبهم ما أصاب الناس ...) ومنها ما عبر عنه سعد حين قال: «فيم كان من قسمك هذه الغنائم في سائر العرب و لم يكن فيهم من ذلك شيء ...». وتقدم قولهم: «إن سفهاءهم قالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم».

وجاء في رواية أخرى: «لما كان يوم فتح مكة – يعني تلك السنة – قسَّم الرسول الغنائم بين قريش فغضبت الأنصار». وجميع هذه الروايات في صحيح البخاري.

وأما قول سعد – رضي الله عنه: «فكأنهم وجدوا في نفوسهم ...»: قال ابن حجر: «الوجد للحزن والغضب» ... يقال: وجد فلان: إذا غضب. ويقال أيضًا: وجد في نفسه إذا حزن؛ وذُكر أن سبب حزنهم أنهم خافوا أن يكون رسول الله ﷺ يريد الإقامة في مكة، والأصح ما في الصحيح؛ حيث قالوا: إذ لم يصبهم ما أصاب الناس».

حكمته ﷺ في تقسيم الغنائم

اختصر ابن حجر في الفتح[١] ما ذكره ابن القيم في زاد المعاد[٢] عن حكمة الرسول ﷺ في توزيع الغنائم بعد حنين في مسلمة الفتح وحرمان أهل الجهاد فكان مما قال:

«اقتضت حكمته أن تقسَّم الغنائم على من لم يتمكن الإيمان من قلبه؛ لما بقي فيه من الطبع البشري من محبة المال؛ فقسمه فيهم لتطمئن قلوبهم وتجتمع على محبته؛ لأنها جبلت على محبة من أحسن إليها، ومنع أهل الجهاد من أكابر المهاجرين ورؤساء الأنصار مع ظهور استحقاقهم لجميعها؛ لأنه لو قسَّم الغنائم فيهم لكانت مقصورة عليهم، فاقتضت هذه الحكمة أن توزَّع الغنائم في المؤلفة ويوكل من قلبه ممتلئ بالإيمان إلى إيمانه.

وأما قسمته على المؤلفة فعلى خلاف ذلك؛ لأن فيه استجلاب قلوب أتباعهم الذين يرضون إذا رضي رئيسهم، فلما كان العطاء سببًا لدخولهم في الإسلام وتقوية لقلوب من تبعهم في الدخول كان في ذلك عظيم المصلحة.

وأما قصة الأنصار فقد اعتذر رؤساؤهم بأن ذلك من بعض أتباعهم، ولما شرح لهم ﷺ ما خفي عليهم من الحكمة فيما صنع رجعوا مذعنين ورأوا أن الغنيمة العظمى ما حصل لهم من عودة

(١) فتح الباري ج٨، ص٤٩.
(٢) زاد المعاد ج٣، ص٤٧٧.

رسول الله إلى بلادهم، فسلوا بذلك عن الشاة والبعير والسبا من الأنثى والصغير بما حازوه من الفوز العظيم ومجاورة الرسول الكريم لهم حيًا وميتًا.

وهذا دأب الحكيم يعطي كل أحد ما يناسبه».

ولقد ذكر رسول الله ﷺ طرفًا من حكمته في أكثر من موضع حيث قال: «**فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم**». [رواه البخاري].

وقال: «**إن قريشًا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة وإنني أردت أن أجبرهم وأتألفهم**».

ولقد تحققت حكمته ﷺ حتى شاع في الناس أن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ... وهذا صفوان بن أمية يقول: ما زال رسول الله يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليَّ، حتى ما خلق الله شيئًا أحبَّ إليَّ منه. [رواه أحمد ومسلم والترمذي].

وهكذا أدرك الصحابة – رضي الله عنهم – أن المال الذي أتى من الجهاد إنما صرف في سبيل الغاية من الجهاد؛ وهي دخول الناس في دين الله واطمئنانهم فيه وثباتهم عليه ومحبتهم له ولرسوله ولأتباعه.

طريقة معالجة الموقف

١– السعي في مصالح القوم الدينية الدنيوية:

لا بد أن تكون هذه المهمة من أولى المهمات في مجال دعـــوة الناس وجمع شملهم حول قيادة شرعية يشرعون برعايتها لهـــم، وإذا شعر الناس أن حاجاهم الخاصة ومصالحهم الدنيوية لها أناس آخرون فسوف يصرفون وجوههم لمن يسعى في مصالحهم العامة، وإن سعد بن عبادة – رضي الله عنه – وهو أحد النقباء الاثنى عشر للأنصار يوم العقبة الثانية الذين قال لهم الرسول ﷺ: «**أنتم على قومكم بمن فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل علـــى قومي**». قالوا: نعم [1]. إن سعدًا – رضي الله عنه – كانـــت لـــه مبادرته الإيجابية حين سعى في مصالح قومه عند الرسول ﷺ. فقال: «إن هذا الحي من الأنصار، وجدوا عليك في نفوسهم فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وسائر العرب و لم يكن فيهم من ذلك شيء». وليس صحيحًا أن السعي في مصالح القوم يجب أن يقـــف عند المصالح الأخروية فقط وأن المطالبة بحقوق الناس الدنيوية نقص وعيب، أليس الله يثني على عباده الذين يقولون: ﴿**رَبَّنَا آَتِنَـــا فِـــي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُـــمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾، وكان مـــن دعـــاء الرسول ﷺ: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هـــو عصـــمة أمـــري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليهـــا**

(١) ذكره ابن هشام في السيرة.

معادي»[(١)].

وفي النصوص دلالة على وضع كل مطلب في موضـــعه، وفي الصحيحين يقول أبو موسى الأشعري – رضي الله عنـــه: كـــان الرسول ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: «**اشفعوا تؤجروا ... ويقضي الله على لسان نبيه ما أحبّ**». وتأمل إقبالـــه على جلسائه.

وبلغه ﷺ أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر ونزاع، فخرج يصلح بينهم في أناس معه حتى حانت الصلاة، فجاء بـــلال إلى أبي بكر فقال: هل لك أن تؤم الناس؟ فأقام بلال وصلى أبـــو بكـــر، والقصة في الصحيحين وشواهد الأدلة على السعي بمصالح المسلمين الدينية والدنيوية كثيرة [(٢)]، ولذلك قال ابن حجر: «من فوائد صنيع سعد بن عبادة أن من طلب حقه من الدنيا لا عتب عليه»[(٣)].

٢- حسن النقل:

تميز نقل هذا الخبر بثلاثة مميزات هي: المبادرة والتثبت والأدب.

وهذه العناصر لها دور كبير في احتواء أي حدث والنجـــاح في معالجته.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر النصوص الواردة في: «أبواب قضاء حوائج المسلمين وباب الشفاعة وباب الإصلاح بين الناس» من رياض الصالحين؛ وكتاب الصلح في فتح الباري شرح صحيح البخاري.

(٣) الفتح ج٨، ص٤٧.

فعنصر المبادرة مطلوب وذلك قبل أن تكثر الآراء وتنتشر الشائعات، ويكون التحزب على الأهواء، والحكم بغير علم، ثم يتفرق الناس باختلاف آرائهم والأمر لم يحسم بعد؛ وفي هذه الحادثة تم نقل الخبر وتم علاج الأمر في وقت وجيز لم يغادر الناس فيه مكان الحادث.

وأما التثبت في نقل الوقائع، فليس هو معرفة أن لها أصلاً من الصحة في الواقع وكفى؛ بل مقتضى التثبُّت يعني أمورًا كثيرة من أهمها التوثيق الزماني والمكاني ثم ترك ما لم يثبت بعد صحة ترابطه بالأحداث؛ فسعد – رضي الله عنه – لم يقل حينما نقل الخبر ما تم ربطه بالحادثة من الأقوال التي قيلت؛ مثل: «إذا كانت شديدة فنحن ندعى وتعطي الغنيمة غيرنا» أو تلك: «يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، والله لقد لقي رسول الله قومه»؛ بل مقتضى السلامة في التثبت نقل الوقائع الظاهرة المقطوع في ثبوتها، والحذر من الحدس والظن والتوقعات لبواطن الأمور ومقاصد الكلام والتصرفات بحجة ظهور قرائن وشواهد تدل على أمر ما، وهكذا نرى وصف سعد – رضي الله عنه – قد تحرر من هذا المزلق حين قال: «يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم» قال: «**فيم؟**» قال: «فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء».

وانظر إلى حسن المقصد كيف يدل المرء إلى الصواب والعدل؛ إن سعدًا لم يقصر توزيع الغنائم على قومه بل وفي سائر العرب، إنه

رأى الأمر بعين البصيرة وبنفس مطمئنة تبحث عن الحق فرزق التوفيق؛ بعكس ما إذا تأثر الإنسان بمقررات سابقة استقرت في نفسه تحجبه عن العدل واتباع الحق؛ فإنه لا يشعر باتباع الهوى حين ينقل الأخبار أو يحكم على الأحوال.

وأما الأدب، فيكفي أن ينقل الخبر أحد نقباء القوم ويتصدر عنهم بذلك؛ فإن وقار ذي السن، وحكمة ذي العلم، وتحرك ذي البصيرة، وحياء من احتضنه منهج نبوي منذ أيامه الأولى؛ كل ذلك كفيل بأن ينتج عنه أدب جم، وخلق رفيع، ولسان حاذق.

وكم احتاجت الدعوة إلى الله في مناسبات كثيرة إلى صنيع سعد بن عبادة في نقل الأخبار وطرح القضايا مبادرة وتثبتًا وأدبًا.

٣- توزيع الأعمال:

إن النهج النبوي لا يرصُّ جنودًا للسمع والطاعة العمياء؛ بل يربي رجالاً للمواقف مع السمع والطاعة بالمعروف، التزكية النبوية تربي رجالاً يحملون الدعوة إلى جيل من بعد جيل، الهدي النبوي يصطفي رجالاً يشعلون قناديل الهدى من الكتاب والسنة في كل ميدان من ميادين الحياة وفي كل مكان يحلون فيه، وفي هذه الحادثة برز جانب من هذا الهدي؛ وذلك بعد أن وصف سعد – رضي الله عنه – الموقف لرسول الله ﷺ أشعره الرسول ﷺ بمهمته ومسؤوليته وأنه مؤهَّل لحملها والقيام بأعبائها؛ قال له: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» ثم أوكل إليه أمرًا إداريًا فقال: «**اجمع لي قومك في هذه الحظيرة فإذا اجتمعوا فأعلمني**».

لقد كان الرسول ﷺ يتقصد فعل هذا الأمر؛ ففي قصة عمرو بن العاص حين زوج ابنه عبد الله امرأة ذات حسب وكان يتعهد زوجته فيسألها عن بعلها، فتقول: نعم الرجل من رجل، لم يطأ لنا فراشًا ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناه. فلما طال عليه ذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**القني به**». قال عمرو: فلقيته به، فسأله عن صيامه وعن ختمه للقرآن وقال له: «**صم من كل شهر ثلاثة أيام واقرأ القرآن في كل شهر**».

إن من يقوم بنقل مشكلة ما ثم لا يكون عنده الاستعداد لأدنى مشاركة في حلها جدير بأن لا يُسمع له؛ إلا أن تكون هناك مصلحة راجحة تعفيه من المشاركة والظهور، وإذا تعود الناس على نقل الكلام بغير تحمُّل لتبعاته تمادوا وتجرؤوا وخلطوا حقًا بباطل بظاهر النص، وتكلموا بسبب وبدون سبب لغير مصلحة؛ ثم إن ظاهرة توزيع الأعمال في سيرته ﷺ لم تقتصر على جانب واحد أو على شخص واحد؛ بل أرسل مصعبًا – رضي الله عنه – إلى الدعوة في المدينة وعقد الراية لأسامة بن زيد، وأرسل معاذًا – رضي الله عنه – إلى اليمن، وغيرهم كثير.

وانظر إلى سيرة الخلفاء من بعده؛ ها هو أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما – يسندون أمرًا ذا شأن عظيم عند المسلمين إلى أحد شباب الصحابة؛ وذلك حين استحرّ القتل يوم اليمامة بقراء القرآن أرسل أبو بكر – رضي الله عنه – إلى زيد بن ثابت – رضي الله عنه – فإذا عمر عنده، قال أبو بكر – رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إني أخشى إن استحرَّ القتل بالقراء بالمواطن

فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك الذي رأى عمر، ثم قال أبو بكر لزيد: «إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه». قال زيد – رضي الله عنه: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – فتتبعت القرآن [1].

٤– لكل قوم حديث:

لقد جمع الرسول ﷺ هذا الحي من الأنصار و لم يدع معهم غيرهم، وجاء في رواية لمسلم أنه قال لهم: «**أفيكم من غيركم؟**» قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا. قال: «**ابن أخت القوم منهم**». إنها دعوة معلنة لفئة معينة لا يشعر فيها أحد لم يدع بتوجس أو باستثناء خاص.

لقد اقتضت حكمته أن يترك بقية الصحابة مع أن فيهم من خيار المهاجرين، ويجتمع مع أصحاب الشأن دون غيرهم؛ أليس مما ينافي الحكمة أن يسمع أحد المؤلفة ما قال الرسول ﷺ لهذا الحي في مثل قوله: «**والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم: جئتنا طريدًا فآويناك وعائلاً فآسيناك وخائفًا فآمناك ومخذولاً فنصرناك**»،

---

(١) رواه البخاري ج٩، ص١٠، باب جمع القرآن.

«أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا أسلموا»، «أفترضون أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير». أليس لكل قوم حديث، أليس الحكيم: «من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا»[(١)]. قال البخاري: قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكـذَّب الله ورسـوله»[(٢)]. وروى مسلم قول ابن مسعود: «ما أنت محدثًا قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[(٣)]. وقال ابن حجر: «وممـن كـره التحديث ببعض دون بعض الإمام أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج عن السلطان؛ ومالك في أحاديث الصفات؛ وأبو يوسـف في الغرائب ومن قبلهم عن الحسن، أنه كره تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة – عند السامع – وذلك في الأصـل غـير مـراد؛ فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بغير المراد مطلوب»[(٤)].

إن هدي النبي ﷺ في اقتصاره على أصحاب الشأن تظهر فيـه السلامة من أمور كثيرة، وفي مثل تلك الأزمات إذا لم يراع فيهـا الهدي النبوي فإن من الناس من سينقل بعض الكلام ويترك بعضه، ومنهم من كان غافلاً أو متغافلاً عن الفضائل، فإذا سمع ما حـدث

(١) هكذا بوب البخاري في كتاب العلم (باب ٤٩).
(٢) ذكره البخاري معلقًا باب ٤٩ من كتاب العلم.
(٣) رواه مسلم بسنده.
(٤) الفتح ج١، ص٢٢٥.

من زلل نشره و لم ينشر فضائل صاحبه وإحسانه، وإن منهم من يغيِّر الكلام ويثير الضغائن ويكبر الصغائر، وإن منهم من سيجعلها هدفًا ينشره متى شاء وكيفما شاء لأغراض أخرى في مناسبة وغير مناسبة، يلبِّس فيها على الناس أمورهم ويكدِّر فيها صفوهم؛ وقد ينشر المنافقون والأعداء الخير ثم لا تسأل عن ما تحدثه الصحف ووكالات الأنباء من دسٍّ وتضليل وتزييف وصياغةٍ ملؤها الحقد والمكر، وظاهرها الحياد والصدق؛ بل لا تسأل عما يفعله الجهلة وأنصاف المتعلمين المتعجِّلون منهم والمدفوعون.

ولذلك وغيره ذكر ابن حجر من فوائد الحديث: «مشروعية الخطبة عن الأمر الذي يحدث؛ سواء كان خاصًا أو عامًا، وجواز تخصيص بعض المخاطبين في الخطبة»[1].

٥- المشاعر الإنسانية لا تغفل:

حينما سأل الرسول ﷺ سعد بن عبادة – رضي الله عنه – في قوله: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال سعد: وما أنا إلا امرؤ من قومي! لقد كان سعد يعلم أن رسول الله ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم لا يعنف أحدًا يبوح بما في نفسه، ولا يسخر بما يختلج في المشاعر، ولا يحتقر جهد المقل وخطأ الجاهل، أو تقصيرًا وقع من غير عمد؛ إن سعدًا يعلم أن الرسول ﷺ لا يثأر لنفسه، وكيف وقد وصفه ربه بقوله: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ**

(١) الفتح ج٨، ص٤٧.

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران].

إن إغفال المشاعر الإنسانية والحقوق الخاصة وسيلة حتمية لنفور الناس؛ بل إن آثاره لتبقى عالقة في النفوس لأمد طويل، وإن الإيمان الذي يثبِّت النفوس ويرفعها من نصرة مشاعرها وحقوقها الخاصة لا يوجد في يوم وليلة، وإذا وجد فهو في القلة، ولقد كشف لنا أنس – رضي الله عنه – عن طبيعة معاملة الرسول ﷺ لأحداثه اليومية في الحديث المتفق عليه حين قال: «ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أفٍّ. ولا قال لشيء فعلته لم فعلته. ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا وكذا».

بل إن رسول الله ﷺ بلغ من حرصه على نفوس أصحابه أن يدرك من وجوههم ما تحرجت منه صدورهم، يقول الصعب بن جثامة – رضي الله عنه: أهديتُ رسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا فردَّه عليَّ، فلما رأى ما في وجهي قال: «**إنا لم نرده عليك إلا أنّا حرم**». [متفق عليه].

إن دعوة هذه انطلاقتها في علاقتها الاجتماعية وهذا مستوى قيادتها، لجديرة بالنصرة والتفاف الفئام من الناس بمختلف درجاتهم الاجتماعية حولها، ينصرونها ويمنعونها مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم.

٦- تحقيق البديل المناسب:

إن الرسول ﷺ حينما شعر بمقدار الحزن الذي حدث في نفوس الأنصار حينما تطلعوا إلى ما وزّع من الغنائم سارع إلى إشباع هذا

التطلع، لا بمواجهته وإلغائه، ولكن بما هو أعلى منه وأسمى عند نفوس أصحابه بما فيه من تحقيق معاني الظفر والفوز والحيازة، والتي يمكن أن تكون في الشاء والبعير، ولكنها كانت بحيازة الرسول ﷺ وانضمامه إلى ركبهم؛ بل وحيازته إلى ديارهم، تاركًا قبيلته وسكنه وأرضه التي أخرج منها ليسكن بينكم يا معشر الأنصار راضيًا بجواركم رضًا لا ينازعه فيه حب المرء إلى بلده الأول.

أي فوز بالغنيمة وأي حظ في تلك القسمة التي حصلت للأنصار! لقد جسد الرسول ﷺ هذا البديل بما يشبع به تطلعاتهم وجعلها موازنة لا تقبل المقارنة في أمور يشاهدونها في حاضر دنياهم حين قال: «**أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالدنيا إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى رحالكم، فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به**».

لقد أدركت الأنصار ضخامة المقارنة وهي تسمع لأول وهلة أن الرسول ﷺ سيترك مكة وسيعيش في المدينة بقية حياته بين أظهرهم؛ إنه بديل يملأ السمع والبصر في حاضر الأيام ومستقبلها.

إن مناسبة البديل وإعلانه في تلك الساعة أحدث أثرًا عميقًا في نفوس الأنصار وجعلهم يخضلون لحاهم من البكاء؛ بكاء الاعتذار، وربما الفرح، وهم يقولون: رضينا بالله ورسوله قسمًا وحظًا.

وهكذا يمكن أن يستخدم مفهوم (البديل المناسب) في وسائل الإصلاح التربوية في البيت والمدرسة ومحاضن التربية، والمقصود «بالمناسب» هو البديل الشرعي ولا شك الذي فيه ما يلبي

التطلعات ويسد الحاجات التي تبحث عنها النفوس؛ وذلك بمستوى معتدل يسمو بها إلى الترقي في درجات النضوج والكمال والصلاح.

وهنا يكتمل الحديث عن جوانب في معالجة الحدث بداية بالسعي بمصالح القوم وحسن النقل من سعد بن عبادة وانتهاءً بعدم إغفال المشاعر الإنسانية، ثم بتوزيع الأعمال واختصاص القوم بالحديث، ثم بتحقيق البديل المناسب.

مع خطاب الرسول ﷺ

١- الحوار:

بدأ الرسول ﷺ حديثه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله، ثم بحوار وسؤال: «**يا معشر الأنصار ما حديث بلغني عنكم؟**» فسكتوا ... إنه السؤال المناسب لافتتاح الحوار والنقاش.

إن السؤال والحوار اللذين يظهران ما في النفوس من لسان صاحب الدعوى لهما فوائد عدة منها:

١- السؤال عما جرى يشعر المسؤول بأن المتكلم ينطلق من مبادرة محايدة، كما يجب أن يفعل القاضي، وهو واجب قبل الحكم على أي حال، ولكن في إظهاره أثر كبير على النفوس.

٢- إظهار ما في النفوس عادة يطفئ نار الغضب ويزيل القلق؛ وخاصة في مثل تلك الأجواء.

٣- إن السؤال يعطي صاحب الدعوى مجالاً وفرصة للتراجع حياءً أو خجلاً من التصريح بما لا يستحق ذكره ولا يتناسب مع مكانته؛ ولذلك كان من حسن صنيع الأنصار حسن أدبهم في تركهم المماراة والمبالغة في الحياء، وهذا شأن المؤمنين الصادقين.

٤- السؤال دائمًا يمنح السائل السلامة من آفات الرواة وزيادة النقلة، وذلك قبل أن يتم في نفسه تصورًا ناقصًا عن الحديث يعقبه في العادة حكم خاطئ نشأ عن تصور مختل أو ناقص ... وكم ... وكم تفرق جمع؛ وتشتت شمل؛ وذهبت ألفة؛ وقطعت رحم،

وتكرست مشكلة، وقامت فرقة ... حين ضيع منهج النبوة وقل التثبت في الأخبار وجرى الحكم والتصور بدون السماع من أطراف القضية وأصحاب الشأن! وكم ذهب ما في النفوس من غيض، وهدأت بعد حماس، وصفت بعد كدرة، حينما سمعت صاحب الشأن يتحدث عن نفسه وعن قصده ونيته، بلا زيادات النقلة وتصورات الرواة وظنون الوشاة.

٢- حين سكت الفقهاء:

حين سألهم الرسول ﷺ: «**ما حديث بلغني عنكم؟**»

قال أنس كما في رواية مسلم: فقالت فقهاء الأنصار: «أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا»، وأما أناسٌ منا حديثة أسنانهم قالوا: «يغفر الله لرسوله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم».

إن الفقهاء وذوي الرأي لم يقولوا شيئًا؛ لأن ترك الكلام وعدم الولوغ في أمور لم تتبين بعد، والتورع عن إصدار أحكام في أمور لم تثبت بعد صفة للفقهاء؛ وهي صفة قوية ومهمة لا ينبغي إهمالها، وإن أهملت في أناس حديثة أسنانهم، وثار الحماس باسم النصيحة والغيرة؛ فهي تدل على قلة فقه ولو صدقت العاطفة كما دل الحديث. قال ابن حجر – في باب ذم ذي الوجهين: «إن المذموم من الكلام ونقل الأخبار ما يقع به الفساد، وأما ما يقصد به النصيحة ويتحرى الصدق ويتجنب الكذب فلا».

ثم قال – رحمه الله: «وقلَّ من يفرِّق بين البابين؛ فطريق

السلامة في ذلك لمن يخشى عدم الوقوف على ما يباح من ذلك مما لا يباح – الإمساك عن ذلك»[١]. يقول ابن تيمية: «فالعالم تارة يأمر وتارة يبيح وتارة يسكت عن الأمر أو الإباحة؛ فربما كان الأصلح الكفَّ والإمساك عن أمره ونهيه؛ كما قيل: إن من المسائل جوابها السكوت»[٢].

٣- مبدأ ذكر الفضائل:

الأحاديث التي ذكر فيها النبي ﷺ فضائل أصحابه تكاثرت فيها الآثار وتنوعت فيها الأحوال، ولما كان ذكره ﷺ صدقًا محضًا، وكان الممدوح يؤمن معه الإعجاب والكبر، مدح به، ومن جملة ذلك الأحاديث في مناقب الصحابة، ووصف كل واحد منهم بما وصف به من الأوصاف الجميلة»[٣]، ولذا يمكن أن يقال: إن مبدأ ذكر الفضائل هو ذكر ما في الإنسان من خير من غير مبالغة لغرض مشروع وقصد مطلوب يكون من غير مبالغة تحرزًا من الكذب، ويكون لغرض مشروع تحرزًا من المفسدة وافتتان الممدوح بنفسه واتكاله على عمله وترك المزيد من الخير، ولم يحرم الإطراء إلا لما فيه من المفسدة، وإن سلم المدح من تلك الأمور لم يكن به بأس، وربما كان مستحبًّا»[٤]، ولقد تنوَّع ذكره ﷺ لفضائل أصحابه؛ لتنوع المقاصد المترتبة على ذلك.

---

(١) الفتح ج١، ص٤٧٧ باب من أثنى على أخيه بما يعلم.
(٢) الفتاوى ج٢٠، ص٥٨.
(٣) الفتح ج١٠، ص٤٧٧ باب من أثنى على أخيه بما يعلم.
(٤) الفتح ج١٠، ص٤٧٨.

فمن تلك المقاصد الحسنة المترتبة على ذكر الفضائل ما يلي:

* حضُّ الناس على فضائله المذكورة أمام الناس في مثل قوله: «**من أصبح منكم اليوم صائم ...؟**»، «**من عاد منكم اليوم مريضًا ...؟**»[(١)]. وقوله للأنصاري: «**لقد عجب الله من صنيعكما بضيفيكما الليلة**»[(٢)]، حينما أطعما الضيف وباتا مع أولادهما طاويين جائعين.

* **أو إشعار الموصوف بالمسؤولية** والمكانة العلمية، والإشارة إلى دوره المرتقب في مثل قوله: «**لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»[(٣)]، وقوله: «**أرحم أمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبيّ بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل**»[(٤)]، ومثل هذا ما يكتبه العلماء من إجازات علمية.

* أو يكون ذكر الفضائل لتثبيت الموصوف على أعماله وفضائله؛ مثل قوله لأشج بن عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة**»[(٥)]. وقوله عن راية مؤتة: «**فأخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليه**»[(٦)].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن أنس وهو في (الصحيحة) (١٢٢٤) وفي صحيح الجامع (٨٩٥).

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه البخاري.

ومثل قوله لسعد بن أبي وقاص يوم أحد: «**ارم سعد فداك أبي وأمي**»[١] وقوله: «**ورأيت قصرًا بفنائه جارية فقلت لمن هذا؟ فقال لعمر؛ فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتَك. فقال عمر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أعليك أغار؟**»[٢].

* أو يكون ذكر الفضائل حضًّا على أعمال أخرى تناسب فضائل الموصوف في مثل قوله لعبد الله بن عمر: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم الليل**». فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلاً[٣]، وفيما رواه أحمد أنه ﷺ قال: «**نعم الرجل خريم الأسدي لولا طول جمته وإسبال إزاره**»؛ فبلغ خريمًا فعجل، فأخذ شفرة فقطع بها جمته إلى أذنيه ورفع إزاره إلى أنصاف قدميه [٤].

وشاهدُ ذلك في حديثنا عن هذه الحادثة قولُ الرسول ﷺ: «**إني أعطي قومًا أخاف هلعهم وجزعهم، وَأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب**». قال عمرو: فما أحب أن لي بكلمة رسول الله حُمر النعم[٥]، ولهذا ذكر الرسول ﷺ في حديثه من فضائل الأنصار ما ذكر حتى ظهرت مناقبهم العظيمة التي أثنى عليها الرسول الثناء البالغ[٦].

(١) من رواية البخاري.
(٢) من رواية البخاري.
(٣) من رواية البخاري.
(٤) رواه الإمام أحمد والحاكم وأبو داود. قال النووي: بإسناد حسن، إلا قيس بن بشر اختلف فيه، وقد روى له مسلم وضعَّفه الألبانيُّ في ضعيف الجامع.
(٥) رواه البخاري.
(٦) ابن حجر في الفتح ج٨، ص٤٧.

والأمثلة الدالة على أن ذكر الفضائل لغرض مقصود كثيرة جدًا.

ولهذا كان لذكر الفضائل والإشادة بالأعمال أثر عميق في النفوس ودفعة قوية إلى العمل والمسابقة إلى الخيرات، وما أعجب النفوس إذا استهوت العمل.

٤- التذكير بالحقائق الكبرى:

لقد تضمَّن خطاب الرسول ﷺ تذكيرًا بحقائق كبرى صاغها ابن حجر في الفتح بقوله: «المنُّ لله ثم لرسوله على الإطلاق»، «تقديم الآخرة على الدنيا»، «الحض على طلب الهداية والألفة»، «تسلية من فاته شيء من الدنيا بما حصل له من ثواب الآخرة»، «والصبر عما فات منها ليُدخر ذلك لصاحبه والآخرة خير وأبقى»[١].

إن التذكير بهذه الحقائق هو الذي يجب أن تربى عليه النفوس في مثل تلك المناسبات اقتداءً بالنبي ﷺ؛ ويخص ما خصه من التأكيد على قوة الرابطة وعدم تأثُّرها بما جرى، وذلك في قوله: «**لو أن الناس سلكوا شِعْبًا وسلكتُ والأنصار شِعْبًا لسلكت شعب الأنصار**». وقوله: «**الأنصار شعار والناس دثار**». والمعنى: «أنتم الخاصة والبطانة والدثار الذي فوق الشعار»[٢]. والمقصود بالشعار هو ما يلي الجسم والجلد من اللباس، والدثار الذي يليه.

---

(١) الفتح ج٨، ص٤٧.

(٢) ابن الأثير في النهاية ج٢، ص٤٨٠.

٥- بين الإنكار وجمع الكلمة:

وفي تأكيد الرسول ﷺ على رابطته بالأنصار بأكثر من عبارة أمرٌ مهم يتعلَّق بأهمية جمع الكلمة وتآلُف القلوب، وأنه مقصد شرعي يتوافق ويتزامن مع المقصد الشرعي الذي يأخذ صورة الإرشاد أو الإصلاح أو الإنكار وإقامة الحجة؛ فهما مقصدان لا غنى لأحدهما عن الآخر، وأنهما في قلب الداعي إلى الله يظهران في خطابه ودعوته كجناحي الطائر.

نعم، هناك في الناس من يغلب عليه ترك كل ما يشعر بالإنكار من أجل مصلحة جمع الكلمة، وهناك من يغلب عليه جانب الإنكار في كل ما فيه اختلاف - ولو كان في أمور مفضولة - من أجل مصلحة إحياء السنة والعمل بالأفضل دون مراعاة لمصلحة ائتلاف القلوب.

وليس من الحق والعدل أن نعتقد أنه لا يوجد منهج ثالث بين الطرفين عند الدعاة إلى الله القائمين على دعوة الناس إلى شرع الله عند رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ ففعلُه ﷺ في توزيع الغنائم لمسلمة الفتح أو تسليته لذلك الحي من الأنصار كله تأليف للقلوب وجمع للكلمة وإرشاد ونصح وبيان.

وانظر بعين الاعتبار لقصة هارون مع موسى - عليهما السلام ؛ حينما عبد بنو إسرائيل العجل قال لهم هارون: ﴿**يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي**﴾، فلما رجع موسى إلى قومه ورأى أنهم قد ضلُّوا عاتب أخاه: ﴿**قَالَ يَا هَارُونُ**

مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؛ ظنًّا منه أنه لم ينكر ولم يَقُم بالحجة على الوجه المطلوب، وهكذا عندما يحاسب الإنسان على النتائج ، ولكن هارون لفت موسى إلى أمر آخر هو من أمر موسى ومن دعوته: ﴿**يَا بْنَؤُمَّ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**﴾ [طه: ٩٠].

وإنه لأمر يستوقف المؤمن كثيرًا؛ إنه بين أمر يجب عليه إبلاغه والقول به والدعوة إليه والإنكار من أجله والصبر على الأذى فيه، وبين أمر فيه مصلحة اجتماع القلوب وتوحُّد الكلمة؛ يقول ابن تيمية: «من الأمر بالمعروف: الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والفرقة»[١]. وعن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه**»[٢]، ومما يستوجب الأمر مزيد عناية أن هاتين المصلحتين يختلف ترجحهما باختلاف الأحوال، وكثيرًا ما يرتبط ترجُّحهما بالسياسة الشرعية المرعيَّة في أحوال المسلمين عامَّةً.

ويحسن هنا ذكر عشرة ضوابط ينبغي مراعاها في الأحوال التي تتعارض فيها تلك المصلحتان:

١- الرسوخ في العلم هو سبيل التوفيق؛ وإذا تعذَّر ذلك في آحاد الناس فلا تخلو الأمة من علماء يدركون الترجيح بين أعظم

---

(١) الفتاوى ج٣، ص٤٢١.

(٢) رواه البخاري ج٩، ص١٠١.

المصلحتين وتقدير أقل المفسدتين؛ قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [النساء: ٨٣]؛ فليس صحيحًا إذًا أن كلَّ إنسان بل كل طالب علم يستجمع القيام بالمصلحتين في فصل كل نزاع واختلاف يكون بين المسلمين، وهذا النفي يعني أن من لم يستوف القيام بحق المصلحتين الواجب فيهما فليس بمحمود أن يقوم بتحقيق مصلحة ويفسد على المسلمين مصالح أخرى.

٢- أهمية مراعاة نوع المخالفة؛ وذلك من ناحية كونها في أمر ظاهر من الشريعة معلوم من الدين، أو في أمر لا يتيسَّر علمه أو إدراكه وفهمه لكل أحد؛ ومثل ذلك حينما خفيت حكمة توزيع الغنائم على الأنصار، وفي مثل هذه الأمور يغلب جانب مراعاة اجتماع وتأليف القلوب؛ وذلك لظهور العذر للمخالف.

٣- أهمية معرفة منزلة المخالف؛ وكلٌّ له علامتُه وبلاؤه الذي يدل عليه؛ فإن صاحب الهوى لا يعامل معاملة طالب الحق الذي ينصح لله ولرسوله ولكتابه وللمؤمنين، عندما خفيت عليه سنة أو لم يوفَّقْ لإدراك الصواب في فهم أو ترجيح كما حصل للأنصار؛ أما غير ذلك فله شأن آخر؛ فهذا عبد الله بن مسعود يخبر رسول الله ﷺ بعد توزيع الغنائم أن رجلاً قال: ما أراد بهذه القسمة وجه الله. فتغيَّر وجهُ رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم قال: «**رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١)، ولم يُذكر أنه فعل له

(١) رواه البخاري ج٨.

شيئا، وهكذا اختلف فعله عليه السلام لما تغيَّرت منزلة المخالف.

٤- ضرورة التفريق بين مخالف الشريعة ومخالف رأي خاص أو ترجيح محتمل أو استنباط سائغ أو عمل ارتضيناه لأنفسنا؛ فإن أكثر ما يكون من اختلاف وتلاوم بين طوائف أهل الحق إنما هو في أمور يحسن بعضهم القيام بها؛ فيلومون غيرهم على إهمالها؛ وغيرهم يحسن ما لا يحسنون؛ يقول ابن تيمية: «لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة»[1].

ويقول: «فإن مواضع التفرُّق والاختلاف عامَّتُها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ... والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف؛ فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه»[2].

٥- لا حرج من فعل الأمر المفضول وترك الفاضل من أجل مصلحة تأليف القلوب واجتماع الكلمة؛ إذ هي مقصد شرعي يتحقق بها مصالح أخرى متعدية، وشاهد ذلك في حديثنا أنه كان من الممكن لرسول الله ﷺ أن يوزِّع الغنائم في المهاجرين والأنصار دون مسلمة الفتح؛ ولكنها مصلحة تأليف القلوب: «**تألَّفْت بها قومًا أسلموا حديثو عهد بكفر ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام**».

---

(١) الأمر بالمعروف ص٤١.

(٢) الفتاوى ج١٢، ص٢٣٧.

ومن أجل هذه المصلحة ترك ﷺ بناء الكعبة و لم يقمها على قواعد إبراهيم[١]، ومن أجل هذه المصلحة ترك قتل المنافقين [٢]؛ يقول ابن تيمية: «المسلم قد يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحته». بل يقول – رحمه الله: «فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدّم أوكدُهما، لم يكن الآخر في هذه الحالة واجبًا، و لم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة؛ وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرَّمًا على الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر»[٣].

٦- الأصل إنكار المخالفة والتحذير منها؛ فإن حصل المقصود ترك التشهير بالمخالف، وشاهد ذلك في حديثنا قوله لسعد: «**اجمع لي قومك في هذه الحظيرة**». وقوله للأنصار: «**ما حديث بلغني عنكم**». و لم يسأل عن المتحدثين، وكان من عادته أن يقول: «**ما بال أقوام ...**»[٤]، وفي سورة التوبة تكرر قوله سبحانه: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ ....**﴾، إلا أن يكون ذكرُ المخالفة لا يحصل به المقصود إلا بذكر المخالف، وهنا مزلة قدم؛ فلا يجعل الاستثناء هو القاعدة ولا القاعدة بلا استثناء.

---

(١) البخاري: الفتح ج١، ص٣٧١.

(٢) البخاري: الفتح ج١٢، ص٣٠٤؛ مسلم بشرح النووي ج٧، ص١٥٩.

(٣) الفتاوى ج٢٠، ص٥٧.

(٤) البخاري: ج١ ك/ الإيمان وعند مسلم: «ما بال أقوام يشترطون ...»، «ما بال أقوام يواصلون ...»، «ما بال العامل نستعمله...».

٧- لا بد من دفع التوهم عند الإنكار؛ فكم عدَّد رسول الله ﷺ من فضائل الأنصار للأنصار قبل أن يقول لهم: «**أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا أسلموا** ...» دفعًا لتوهُّم أو سوء فهم؛ وهكذا إذا لزم الإنكار ولم يلزم معه التفرق والاختلاف والبغضاء والبراءة والتدابر لزم دفع توهم شيء من ذلك؛ كما كرر الرسول ﷺ للأنصار وأكد على آصرة المحبة لهم والترابط بهم بالقسم؛ وبالمثال المجسد، وبالدعاء، بما لا يدع مجالاً للشك والتوهم.

٨- لا بد من رعاية حقوق الأُخوَّة؛ يقول ابن تيمية: «وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومنهم بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله في قوله: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾، وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسائل العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوَّة الدين ... وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن يُضبط، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا، لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة»(١).

٩- مراعاة التوسط بين الترك المطلق أو الأخذ المطلق؛ بين الإنكار والكف؛ بين الإقدام الجاهل والورع الفاسد؛ يقول ابن تيمية: «إن الطريقة الوسطى التي هي دين الإسلام المحض جهاد من

---

(١) الفتاوى ج٢٤، ص١٧٠.

يستحق الجهاد مع كل أمير وطائفة هي أولى بالإسلام منهم، إذا لم يمكن جهادهم إلا كذلك، واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها على شيء من معاصي الله؛ بل يطيعهم في طاعة الله، ولا يطيعهم في معصية الله؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الله، وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديمًا وحديثًا، وهي واجبة على كل مكلَّف، وهي متوسطة بين طريقة الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقًا وإن لم يكونوا أبرارًا»(١).

١٠- مراعاة مآلات الأمور والعواقب المترتبة على الإنكار أو على الترك، وبُعْدُ النظر في ذلك، وتحرِّي المصلحة يكون بعد ذلك عليه العمل وليس عليه النتيجة؛ يقول الشاطبي: «لا يقال: إن المسببات – النتائج – لا يلزم الالتفات إليها عند الدخول في الأسباب؛ لأنا نقول: إنه لا بد من اعتبار المسببات في الأسباب ... والشارع قاصد للمسببات في الأسباب ... وإذا ثبت هذا لم يكن للمجتهد بد من اعتبار المسبب – النتيجة – وهو مآل السبب»(٢).

يقول ابن تيمية: «فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن إما لجهله وإما لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه فربما كان الأصل الكف والإمساك عن أمره ونهيه»(٣). قال ابن القيم: «إن النبي ﷺ شرَّع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من

(١) الفتاوى ج٢٨، ص٥٠٨.
(٢) الموافقات ج٤، ص١٩٥.
(٣) الفتاوى ج٢٠، ص٥٨.

المعروف ما يحبه الله ورسوله؛ فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض لله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله.

ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها؛ بل لما فتح مكة وصارت دار إسلام، عزّ عليه تغيير البيت وردّه على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه؛ خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بجاهلية»[1].
وقال – رحمه الله: «فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج، كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة؛ إلا إذا نقلتهم إلى ما أحبّ إلى الله ورسوله؛ كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك؛ وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيرًا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك إذا كان ما هم فيه شاغلاً عن ذلك، كما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: «مررت أنا

---

(١) أعلام الموقعين ج٣، ص٤.

وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرَّم الله الخمر لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدُّهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم»»[1].

٦- ماذا بعد انقطاع الوحي:

تتأثر نفوس الأتباع بمواقف القادة وكلماتهم ومعايشة الأحداث معهم، فيتكون لديها شعور قوي بالثبات على المبدأ والاستعداد ببذل كثير من التضحيات؛ وبهذا تنتشر وتقوى كثير من الدعوات والدول والمذاهب؛ ولكن بعد ذهاب القادة المؤسسون والجيل الذي عاصر النشأة الأولى لا يبقى لأنصار هذه الدعوات إلا المنهج الذي قامت عليه الدعوة؛ فإن كان يحمل مقومات الثبات وإلا تخلى الأتباع عن هذه الدعوات وخذلوها وتفرقوا عنها، ثم تلاشت تلك الدعوات وانتهت، أو اجتمع لها أنصار؛ لا على منهجها الأول؛ بل توارثًا وعصبيةً مع تغيير وتبديل في المنهج والطريقة.

أما الدعوات الصَّادقة القائمة على الهدى والحق والدعوة إليه والصبر في سبيله فإنها تؤتي أكلها في كل حين بإذن ربها مهما قل أتباعها أو تسلط عليها الأعداء؛ قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورة قائمة بأمر الله على الحق ظاهرين، قاهرين**

---

(١) أعلام الموقعين ج٣، ص٥. وفي هذا الموضوع رسالة قيمة لهشام آل عقدة في «الأدلة على اعتبار المصالح والمفاسد في الفتاوى والأحكام» ثم الاعتماد عليها في نقل كثير من النصوص السابقة.

لعدوهم، لا يضرهم من كذَّبهم، ولا من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[١].

ومن أسرار ثبات هذه الطائفة تواصيها بالحق والصبر والثبات على الأمر مهما فقدت دعاتها الأوائل من أنبيائها ومجدديها وعلمائها وقادتها.

ثم إن ارتباطها بالأئمة والعلماء ارتباط من بلغ الرسالة ونشر السنة ودعا إليها وصبر على من امتحنه فيها، لا ارتباط بقول ابتدعه أو بأمر اخترعه يقوى بوجوده ويتأثر بموته.

ولهذا أوصى الرسول ﷺ الأنصار بوصية تمثلها عمليًا قبل الاجتماع بهم؛ فقد كان يقول عند توزيع الغنائم: «**أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم**»[٢].

إنه إيثار الآخرة والزهد في الدنيا العاجلة، والعبرة بهذا الإيثار عندما توجد الأثرة والتنافس بين النفوس؛ والأثرة هي الإنفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه [٣].

ولهذا كانت وصيته ﷺ للأنصار: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة؛ فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**» وفي خطابه هذا خبر وأمر وبشارة؛ فتعين على الذين يعانون من الأثرة ويشكون منها الصبر في

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.
(٢) رواه الحاكم وهو حديث صحيح قاله الألباني في فقه السيرة ص٣٩٣.
(٣) ذكره ابن حجر في الفتح.

ذلك، رجاء ما عند الله واستصغار ما يصيب الإنسان من أذى في كلام أو أثرة في مال أو تسلط على حقوق، أمام ما أصاب النبي ﷺ والأنبياء من قبله؛ وتقدم قوله ﷺ عندما نقل له أن رجلاً قال: ما أراد بهذه القسمة وجه الله قال: «**رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» [رواه البخاري]. إنه لا دواء للأذى كالصبر والتقوى؛ فبهما ينتهي الموقف بشدته وكربته والمؤمن لا يحمل تبعات أخرى؛ تحمل عادة من جراء فقدان الصبر؛ ونفاد السكينة وعدم ضبط النفس. وبالصبر تظهر قيمة الإيمان تحت محك الابتلاء حيث يزيد تعلق الإنسان بربه استعانة به وثقة بوعده: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**﴾ [النحل: ١٢٧].

٧- الدعاء:

لقد أنهى رسول الله ﷺ ذلك الاجتماع بدعاء كريم قال فيه: «**اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**» وفي ذلك عدة أمور منها:

أولاً: الدعاء عبادة يستحضر فيها الداعي والمستمع المؤمن حسن الإخلاص لله وحقيقة الافتقار إليه.

ثانيًا: هذا الدعاء خاص بالأنصار.

ثالثًا: كانت كلمات الدعاء تلمس المشاعر؛ إذ هو دعاء يجسد همًّا لكل رجل من الأنصار حيث دعا لهم بالرحمة وهي أعم وأوسع.

رابعًا: في الدعاء تطمين لقلوبهم من خوف العالة على أبنائهم.

هكذا يستدرك العظماء الخطأ

لقد كان الرسول ﷺ على خلق عظيم في كل أحواله.

قال الشافعي:

وكذا الــرئيس هــو الــرئيس بخلقــه
لــــيس الــــرئيس بقومــــه ورجالــــه (١)

ولقد تجلت جوانب من عظمته ﷺ في موقفه مع الأنصار منها الجوانب التالية:

١- القصور من طبيعة البشر:

قاعدة يستحضرها العظماء، لا لِيُغض الطرف عن أخطائهم بل حينما يتعاملون مع أخطاء وتقصير البشر، إن العظماء لا يفــاجئهم الخطأ ليصرفهم عن سبيل الإصلاح إلى الطــيش والغضــب، بــل يدركون أن كل ابن آدم خطاء وأنه قد كتب على الإنسان حظــه من الخطأ مصيبه لا محالة، لذا فإنهم ينصرفون حال وقوع الخطأ إلى تداركه بما هو أنفع.

لقد سمع الرسول ﷺ وهو قادم من غزوة حنين من الصحابة من يقول: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط (٢)، فقــال ﷺ: «**الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده، كمــا قــال موســى:**

---

(١) ديوان الشافعي.

(٢) ذات أنواط: سدرة عظيمة خضراء، كانت العرب تعلق عليها أسلحتها، ويذبحون عندها ويعكفون.

﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم» [رواه الترمذي][(1)].

وفي قصة توزيع غنائم حنين: لما أخبره سعد – رضي الله عنه – عن حال الأنصار وأنهم وجدوا في نفوسهم فيما كان من قسم هذه الغنائم في سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء، قال ﷺ: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**».

قال سعد – رضي الله عنه –: وما أنا إلا امرؤ من قومي.

قال: اجمع لي قومك في هذه الحظيرة، ولم يتعجل ﷺ بكلام ساخط على الأنصار، ولم يغضب حين علم بقولهم، ولم يقل: كيف يحصل هذا من الأنصار بعد سنوات من الإيمان والجهاد. كلا بل أدرك أن البشر يعتريهم الجهل والغفلة وتستهويهم الدنيا، وأنهم بحاجة إلى تعليم ومتابعة وتوجيه فقال: «**أين أنت من ذلك يا سعد؟**».

ليست المشكلة في وجود العيب والنقص والتقصير ولكن أين دور المربي والمعلم والقائد والموجِّه والمتابع، إن النفوس حال وقوع الخطأ ليست بحاجة إلى مزيد من الزجر والملامة والتحسر وكلمات الغضب أكثر من حاجتها إلى متابعة وتعليم وتسديد للخطأ بتوجيه سليم وإرشاد محكم وعتاب مدرك أن القصور من طبيعة البشر.

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح وهو في صحيح الترمذي برقم ١٧٧١.

قال الشاعر:

أم تلعمـــــا أن الملامـــــة نفعهـــــا

قليـــل ومـــا لـــومي أخـــي مـــن شمـــالي[(١)]

إن ما حدث للأنصار الذين رباهم الرسول ﷺ وعلمهم وزكاهم عزاء لكل معلم أو موجه أو مرب أو أب حينما يشاهد في تلاميذه أو في بنيه قصورًا أو نقصًا أو خطأ، حينما يعلم أن القصور من طبيعة البشر.

٢- حريص عليكم:

---

(١) نسبه مؤلف مصادر السيرة: إلى عبد يغوث الحارثي. وقال: الشمائل: جمع شمال وهو الطبع والخلق.

ومما يذكره الشعراء في ترك الملامة، قول سعيد بن حميد (ت٨٨٨هـ):

أقلـــل عتابـــك فالبقـــاء قليـــل
والـــدهر يعـــدل مـــرة ويميـــل
ولعـــل أيـــام البقـــاء قليلـــة
فعـــلام يكثـــر عتبنـــا ويطـــول

ومثله قول محمد بن زريق البغدادي:

لا تعذليـــه فـــإن العـــذل يولعـــه
قـــد قلـــت حقًـــا ولكـــن لـــيس يســـمعه
جـــاوزت في لومـــه حـــدًا أضـــر بـــه
مـــن حيـــث قـــدرت أن اللـــوم ينفعـــه
فاســـتعملي الرفـــق في تأنيبـــه بـــدلاً
مـــن عنفـــه فهـــو مضـــني القلـــب موجعـــه

لقد وصف الله معاملة رسول الله ﷺ لأصحابه ظاهرًا وباطنًا فقال: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ وها هو يشعر أصحابه بهذه العلاقة في لقاءاته الأولى بالأنصار في بيعة العقبة الثانية حين قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»(١).

وبعد فتح مكة نشاهد موقفًا يتجلى فيه مدى العلاقة التي يشعر بها النبي ﷺ نحو أصحابه.

يقول أبو هبيرة عائذ بن عمرو المزني: «إن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال، في نفر قالوا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: **يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك،** فأتاهم فقال: يا إخوتاه أأغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أخي» [رواه مسلم].

هكذا يشعر سيد العظماء بقرب أصحابه منه شعورًا واحدًا فرحًا وغبطة أو حزنًا وحسرة في وقت الرخاء والشدة.

لقد تعامل ﷺ مع الأنصار تحت قبة الأدم التي جمعهم فيها بهذا الشعور الفياض، أشعرهم بمقدار الحرص الذي يكنه لهم، ومدى التواصل والتطابق في المقاصد، لقد أدرك الصحابة – رضي الله

---

(١) حديث صحيح قاله الألباني في فقه السيرة وقال: رواه ابن إسحاق في المغازي والإمام أحمد وابن جرير في تاريخه ونقل من الفتح تصحيح ابن حبان لسنده.

عنهم – أن كلماته نحوهم تخرج تحت هذه المظلة: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ يشق عليه ما يحرجكم.

إنه شعور نادر لا يوجد إلا في القلة من القادة العظماء وفي القليل منهم حينما يستدركون الأخطاء.

٣- أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين:

لقد خفض الرسول ﷺ جناحه للمؤمنين كما أمره ربه وحينما خاطب الأنصار أظهر لهم معاني التودد والاحترام ولين الجانب وخفض الجناح، ما يؤخذ من قوله: «**والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصُدقتم: جئتنا طريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفًا فآمناك ومخذولاً فنصرناك**».

إن التواضع بذكر إحسانهم والاعتراف بفضلهم، صورة لطيفة من صور الذلة للمؤمنين والاحترام ولين الجانب وحسن المعشر، قرت بها عيونهم وسمت بها نفوسهم وعز جانبهم ورسول الله ﷺ يعالج معهم الخطأ وكلما كان المؤمن ذليلاً للمؤمنين عزيزًا على الكافرين عظمت مكانته عند الله وعند المؤمنين.

وما كملت صورة العظماء عند المؤمنين إلا بمثل هاتين الصفتين.

وما انقلبت مكانة غيرهم وانحط قدرهم بمثل انتفاء هاتين الصفتين.

انظر كيف يحفظ أبناء المسلمين موقف العزة الذي وقفه هارون

الرشيد مع ملك النصارى (نقفور) بعد أن امتنع عن دفـع الجزيـة وهو صاغر فأرسل إليه هارون رسالة قال فيها: «بسم الله الـرحمن الرحيم: من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قـرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه، والسلام»(١).

ومن بعده موقف السلطان عبد الحميد الثاني مع اليهود: ففـي عام ١٩٠١م تقدم وفد يهودي برئاسة هرتزل برشوة إلى السلطان عبد الحميد قائلاً: «مولانا صاحب الشوكة جلالة السلطان، لقـد وكلنا عبيدكم اليهود بتقديم أسمى آيات التبجيل والرجاء.

عبيدكم المخلصون اليهود يقبلون التـراب الـذي تدوسـونه ويستعطفونكم للهجرة إلى فلسطين المقدسة، ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو التفضل بقبول هديتهم خمس ملايين ليرة ذهبية».

وبعد أن استمع لهذا العرض أمر مرافقه أن يطردهم من القصر وأصدر على الفور أمرًا يمنع هجرة اليهود إلى فلسطين.

وقال: «انصحوا الدكتور هيرتزل بأن يحتفظ بملايينه وألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين، فهي ليست ملك يميني بل هـي ملـك شعبي»(٢).

---

(١) ثم سار بجيشه ففتح وغنم ثم طلب نقفور الموادعة على دفع الجزية والخراج في كل سنة وكان ذلك سنة ١٨٧هـ. (انظر: كتاب هارون الرشيد لشوقي أبو خليل عن الكامل في التاريخ والبداية والنهاية وتاريخ الخلفاء).

(٢) انظر: (أسرار الانقلاب العثماني) لمصطفى طوران ترجمة كمال خوجة ص٨. أيضًا: (صراعنا مع اليهود. لـ د. محمد عثمان شبير ص٥٧).

لقد صغر عند هذين الموقفين كثير من أعمال الخليفتين العباسي والعثماني سواء الداخلية والخارجية الـتي أنجـزت خـلال مـدة خلافتهما. بل صغر أمام موقف العزة كثيرٌ مـن الخلفـاء قبلـهم وبعدهم. وعلى العكس من هذا يمكن أن يقال نقيض هذا الكـلام عندما يختفي مفهوم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين.

وها هو الحجاج بن يوسف الثقفي – رحمه الله – كانت لـه جهود في الفتوحات الإسلامية في بلاد المشرق.

ولكن لما كان مشتهرًا بشدته وقوة بطشه وظلمه لأبناء جلدته تناسى الناس هذه الجهود و لم يعد يـذكر إلا في معـرض الـذم والتنقص. وقد هجاه على ذلك أسامة بن سفيان بقوله:
أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامـة فتخاء[1] تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة[2] في الوغا بل كان قلبك في جناحي طائر

٤- ترك الشماتة والتنقص:

وهو أمرٌ على النفوس التحرز منه عند معالجة الخطأ وقليل من يلحظ الأمور بروح الإصلاح والتفاؤل وبعين ترى عواقب الأمور ومستقرها.

لقد كانت سجيته ﷺ ترك الشماتة والتعبير، والنظـر بعـين البصيرة والتفاؤل والنظر في عواقب الأمور وهذه نماذج من سـيرته

(١) فتخاء: هي العقاب اللينة الجناح.
(٢) غزالة: زوجة شبيب بن زيد أحد شجعان الخوارج، وكانت تقاتل معه.
(٣) ذكر الأبيات ابن كثير في البداية ج٩، ص٢٢.

تجسد هذه المعاني:

أولها: عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: أتى رجل قد شرب خمرًا فقال ﷺ: اضربوه. قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله. قال ﷺ: «**لا تقولوا هكذا لا تعينوا عليه الشيطان**» [رواه البخاري][1]. وفي رواية له: «**لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم**». وعند أبي داود [2] زيادة: «**ولكن قولوا: اللهم اغفر له اللهم ارحمه**».

ثانيها: ما حكاه معاوية بن الحكم عن نفسه حينما شمت عاطسًا في الصلاة خلف الرسول ﷺ يقول: فقلت: يرحمك الله رافعًا بها صوتي، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمّياه، ما شأنكم تنظرون إلي بأعين شزر، فسبحوا وجعلوا يضربون بأيدهم على أفخاذهم فعرفت أنهم يصمتوني فسكت، قال: فلما صلى رسول الله ﷺ: بأبي وأمي ما ضربني ولا كهرني [3] ولا سبني ثم قال: «**من المتكلم؟**» قيل: هذا الأعرابي فدعاني رسول الله ﷺ فقال لي: «**إنما الصلاة لقراءة القرآن والتسبيح والتكبير، وذكر الله جل وعز، فإذا كنت فيها فليكن ذلك شأنك، ولا يحل فيها شيء من كلام الناس هذا**».

---

(١) البخاري ١٢/٥٧.

(٢) أبو داود (٤٤٧٨).

(٣) كهرني: بمعنى انتهرني وأغلظ لي واستقبلني بالعبوس.

قال معاوية: فما رأيت معلمًا قط أرفق من رسول الله ﷺ [رواه مسلم [١] والنسائي وأبو داود [٢] واللفظ له].

ثالثها: ما أوصى به رسول الله ﷺ أبا جرُيّ جابر بن سليم – رضي الله عنه – حيث قال: «**ولا تحقرن من المعروف شيئًا، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك، فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه**» [رواه أحمد[٣] والترمذي[٤] وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود[٥] واللفظ له وصححه النووي[٦]].

ولعل هذه الصور الثلاث – فيما أمر به وفعله وأوصى به ﷺ – غنية عن التعليق فيما تؤكده من نفي وترك الشماتة والتعبير والتنقص عند مواجهة خطأ أو تقصير أو إساءة من بشر؛ ولا على المربي والقائد والمصلح إلا الانشغال بالنافع وبيان المطلوب وترك الفضول والرفق في الإصلاح[٧].

---

(١) مسلم (٢/٧٠).

(٢) في روايتين ج١، ص٥٧٣ برقم (٩٣٠) و (٩٣١) ك/ الصلاة بـ/ تشميت العاطس في الصلاة.

(٣) رواه أحمد ٥٠/٦٣ و ٦٤.

(٤) أبو داود (٤٠٨٤).

(٥) الترمذي (٢٧٢٢).

(٦) في رياض الصالحين.

(٧) ومن قبل قال الشافعي:

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ودافع ولكن بالتي هي أحسن

(ديوان الشافعي)

وفي قصته ﷺ مع الأنصار ليس في عتابه لهم قدح لهم بل القصة[1] تُذكر في أبواب فضائلهم – رضي الله عنهم – حيث لا شيء فيها من الشماتة والتنقص، لقد كان خطابه ﷺ لهم فصلاً بينًا جليًا لا غموض فيه ولا لبس يُفهم منه الازدراء بهم، وتأمل ذلك في قوله لهم: «**أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألف بها قومًا أسلموا، حديثوا عهد بكفر ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام**».

وهكذا كلما شرفت نفوس المؤمنين وزكت وعظمت غاب في حديثها التعبير والتنقص ممن هو دونها في العمل أو الفضل أو العلم أو المكانة، وجال في سمعها قول الشاعر:

أعيرتني بالنقص والنقص شامل
ومن ذا الذي يعطي الكمال فيكمل
وأشهد أني ناقص غير أنني
إذا قيس بي قوم كثير تقللوا
ولو منح الله الكمال ابن آدم
لخلده والله ما شاء يفعلوا [2]

٥- رفع مستوى الخطاب:

إن من طبيعة العظماء والكرماء أن يفيض شيء من عظمتهم وسموهم – دون تكلف – في خطابهم ومعاملاتهم حتى في أحلك

(١) انظر: البخاري كتاب مناقب الأنصار بـ/ فضل الأنصار وقريش (٦٦).
(٢) ذكر الأبيات ابن الروي في أدب الدنيا والدين ص١٤٤.

الظروف وعند تدارك الأخطاء وإصلاح المعايب ومواجهة الأزمات. لقد كان الأنصار حينما أنصتوا إلى رسول الله ﷺ آذانًا تسمع وقلوبًا تشهد ما في خطاب رسول الله ﷺ من هيبة سمو المقاصد ورفعة النفس وروعة البيان وصدق الكلمة وقوة التأثير وحسن المنطق وجمال التعبير وجزالة الألفاظ.

إن القائد أو المربي أو المعلم أو الأب حينما يباشر إصلاح الأخطاء، وحينما يصطدم بالمواقف الصعبة ينبغي أن لا يكون اشتغاله بذلك دافعًا إلى رد المسألة بمثل ما جاءت به من مستوى وطموح وتطلع، دون أن يضيف إليها مزيدًا من السمو والتطلع إلى مقاصد جليلة، ومراتب عالية، إنه في حاجة في هذا الوضع إلى رفع مستوى الخطاب أكثر من أي وقت آخر.

وهكذا يكتمل الحديث عن جوانب من العظمة التي استدرك فيها الرسول ﷺ الخطأ حينما كان مقدرًا لوجود القصور البشرى مع حرصه على ما يسر أتباعه وأنصاره لينًا لهم عزيزًا على أعدائهم تاركًا الشماتة والتعبير والتنقص مع الاكتفاء بالبيان والوضوح الذي يجلله روعة البيان وخطاب رفيع المستوى.

موقف الأنصار

وهنا يسجل الموقف للأنصار جميل أدبهم وحسن استجابتهم الذي ظهر في أمور ثلاثة هي:

١- فن الاستماع:

إنه الأدب الرفيع والخلق الجم ... حتى إذا لم يبق من الأنصار إلا اجتمع ... فما كلمهم رسول الله ﷺ سكتوا ... وماذا نقول يا رسول الله ... وبماذا نجيبك.

٢- حسن الأعذار:

وقال الفقهاء: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئًا ... وماذا نقول يا رسول الله ... المنّ لله ولرسوله ... رضينا بالله وبرسوله قسمًا وحظًا ...

إنه تلاحق عجيب؛ لتسديد الخلل وسمو إلى أعلى المقاصد، مع وقفة المتأدب الذليل الطائع؛ إنه تراجع إلى الرؤية العالية والغالية السامية ولا شيء يكبح جماح النفس عن حظوظها من الدنيا لتتطلع إلى وعد الله في الآخرة إلا التربية بالإيثار عند الأثرة، ولا شيء يرفع الإنسان عن تعلقه بحظوظ الدنيا إلى نصيبه في الآخرة إلا قوة إيمانه بالله واليوم الآخر.

٣- رقة القلب:

وما أعجب ذلك المشهد الذي يخرج فيه الأنصار وهم يبكون قد أخضلوا لحاهم ... وقد أجابوا رسول الله ﷺ بالدموع وهم

يقولون: رضينا بالله ربًا وبرسوله قسمًا وحظًا إنه الاعتراف والاعتذار الصادق، وكأنهم بقياس هذا الزمان قد أحدثوا جرمًا أو باشروا كبيرة؛ ولكن هكذا يفعل الصالحون من عباد الله المشفقون على أنفسهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ قالت عائشة: يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق وهو يخاف الله؟ قال: «**لا، هو الرجل يصوم ويصلي وهو يخاف الله**»؛ [رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه والحاكم] إنها حسن الاستجابة ورقة القلب فهل هي وقف على الرعيل الأول؟

أم أن زلات القوم لا يزل بأعظم منها؟؟

الفهرس

